دور السلطان صلاح الدين القيادي في تأسيس واتساع الدولة الأيوبية وتماسكها

د. عبدالباسط سيدا

قسم اللغويات و علم اللغه- جامعه اوبسالا/ السويد

الملخص:

تعد الكتابة حول الدولة الأيوبية ١١٧١-١٢٥٠ التي تاسست على يد صلاح الدين الأيوبي من المواضيع الصعبة، وذلك بفعل الكثير المكرّر مما كتب في الموضوع من قبل المؤرخين والباحثين العرب والكرد والغربيين والأجانب عموماً. فقد قدم هؤلاء مادة غزيرة تناولت التفاصيل الخاصة بالجوانب التاريخية وتطور الأحداث والمساحة الجغرافية الواسعة التي غطتها تلك الدولة. كما بينت حيوية مكانتها في سياق الأحداث الكبرى التي شهدتها المنطقة أثناء الحملات الصليبية، وألقت الضوء على إسهامها في القضاء على الدولة الفاطمية في مصر، فضلاً عن إنجازاتها الإدارية والعمرانية ونظام الحكم الذي اعتمدته.

ولتجاوز هذا الأمر، ستركز الورقة البحثية المقترحة على دور الملكات التي اتسم بها صلاح الدين، والمزايا الخاصة التي شكّلت بتفاعلها ملامح شخصيته القيادية؛ هذا إلى جانب إبراز دور تربيته الأسرية، والبيئات الاجتماعية التي نشا فيها، والوظائف التي انيطت به، والفرص التي اتيحت له.

فقد ساعدت كل هذه العوامل في تبلور ملامح الفكر القيادي الاستراتيجي لدى صلاح الدين، وهو الفكر الذي مكّنه من التعامل الصبور المثمر مع التحديات الجسام التي تمثلت بصورة أساسية في الحملات الصليبية، والصراعات البينية بأشكالها المختلفة، سواء بين السنة والشيعة، أم بين أمراء الدولة الأيوبية نفسها، أو تلك التي كانت بين الدولة الأيوبية وحكام المناطق المجاورة لها.

ومن بين أهم ملامح الفكر المذكور ستتناول هذه الورقة:

١. السياسة التوازنية الحكيمة وبناء التحالفات.

٢. التركيز على الهدف الاساس واعتماد سياسة الحزم في التعامل مع العقبات.

٣. الحرص على اعتبار الخليفة العباسي مصدر شرعية الدولة.

٤. التركيز على البعد الإسلامي للدولة للتمكن من استيعاب سائر الخصوصيات المجتمعية.

٥. اعتماد الشورى وأخذ آراء العلماء وأصحاب التجربة بعين الاعتبار.

٦. الاهتمام بالنظام الإداري والجانب العمراني.

٧. الحرص على أهمية التكامل بين مختلف مناطق الدولة من دون التدخل المباشر في التفاصيل. اي اعتماد ما يمكن تسميته وفق المصطلح الحديث النظام الإداري اللامركزي أو الاتحادي.

٨. شجاعته وحنكته في قيادة المعارك.

٩. توزيع المهام ضمن الأسرة الأيوبية وبين قواده تحاشياً لصراعات بينية على السلطة.

١٠. التزام قيم التسامح والنزاهة والتواضع ومساعدة المحتاجين.

وما يؤكد أهمية الملامح المأتي على ذكرها، ودورها في اتساع نطاق الدولة الأيوبية، هو أنه بعد وفاة صلاح الدين دبت الخلافات بين أعضاء الأسرة الأيوبية، ودفعت الصراعات على السلطة بهم إلى الدخول في تحالفات متعارضة، والاستعانة بقوى معادية بغية الاستقواء بها في مواجهة المنافسين من أعضاء الأسرة نفسها، هذا إلى جانب الدورالسلبي الذي قام به المماليك.

وهذا ما ستحاول الورقة إلقاء الضوء عليه، وذلك في سياق المنهج الوصفي المقارن الذي ستعتمده لتحديد أوجه الخلاف بين مرحلة تأسيس الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين، ومرحلة الضعف في عهد الحكام المتنافسين من الأسرة الأيوبية، وهي المرحلة التي انتهت بزوال الدولة المعنية. وفي الختام، ستبحث الورقة في انعكاسات كل ذلك على كردستان.

تمهيد:

مصطلح الدولة من المفاهيم/المصطلحات التي تغيرت مضامينها عبر مختلف المراحل التاريخية. من دولة المدينة إلى الدولة الإقليمية والدولة الأمبراطورية، وصولاً إلى الدولة.الوطنية، ومن ثم الدول الأمبراطورية الدينية ومن ثم القومية ، والدولة الوطنية، ومن ثم الدولة الوطنية في مرحلة العولمة والنظريات الليبرالية، والعودة مجدداً إلى الدولة القومية أو الدينية والمذهبية.

وإذا أخذنا المعايير الحديثة التي تعتمد اليوم للتمييز بين الدولة وغيرها من الكيانات السياسية، فسنجد أنها بصورة عامة المعايير نفسها التي كان التوافق عليها بين الأطراف التي أسست لنظام عالمي جديد بعد معاهدة وستفاليا١٦٤٨، وإنشاء عصبة الأمم عامى١٩١٩، ومن ثم تأسيس الأمم المتحدة عام ١٩٤. ولكن هذه المعايير لم تأت من الفراغ، وإنما تبلورت خلال مختلف المراحل التاريخية القديمة منها التي سبقت معاهدة وستفاليا، والحديثة التي ظهرت بعدها، وأهم هذه المعايير هي: الإقليم والشعب أو الأمة، إلى جانب السلطة السياسية والمؤسسات، ومن ثم مفهوم السيادة.

والتدقيق في هذه المعايير من جهة أهميتها ودورها في تشكيل الكيانات السياسية التي عُرفت، وتعرف اليوم، باسم الدول، يبين لنا أن هذه المعايير تتمثل في السلطة والمؤسسات السياسية المرتبطة بها التي تجسد صيغة من صيغ الإدارة السياسية للمجتمع الذي يخضع لتلك السلطة؛ ضمن إطار الحيز المكاني الذي تقوم عليه وتحكمه تلك السلطة.

أما مفهوم السيادة فهو مفهوم قانوني حديث نسبياً اعتمد بالتوافق بين الدول المؤثرة، خاصة تلك التي انتصرت في الحروب الإقليمية أو العالمية؛ هذا بينما كانت السيادة سابقاً خاضعة لمنطق القوة، وتتوقف على مدى قدرة كل دولة على توسيع دائرة نفوذها وانتزاع الاعتراف الصريح أو الضمني من الناس أو الرعايا الذين كانوا خاضعين لها.

والذي حدث في مراحل ضعف الامبراطوريات الكبرى التي سيطرت على مناطق واسعة تميزت بتنوعها الأقوامي والديني، وحتى المذهبي، هو أنه في مراحل ضعف السلطة المركزية كانت تتشكل دول فرعية خاضعة لسلطة سلالات محلية، أو سلطة القوى العسكرية التي كانت تستنجد بها السلطة المركزية في مراحل ضعفها لفرض هيمنتها وتأمين سلطتها، أما الدوافع التي كانت تشجع تلك القوى على القتال فقد كانت إما دينية مذهبية، أو الرغبة في الحصول على المناصب والامتيازات والثروات.

وهكذا كانت تبرز سلالات محلية متنفذة ، تسيطرعلى مناطق معينة، وتحتفظ بقسط واسع من الاستقلال الذاتي مقابل الالتزام بواجبات الطاقة تجاه السلطة المركزية التي كانت تضفي عليها المشروعية التي تمكّنها من الحكم والتوسع.

وهذا ما شهدته الكثير من الدول الامبراطورية في العالم، ولكن هذه الخاصية. باتت خاصية رئيسة محورية في المراحل الأخيرة من الدولة العباسية التي عانت كثيراً من الصراعات ضمن أعضاء الأسرة الحاكمة، وكان غالباً بفعل الاختلاف حول أحقية الخلافة، والصراعات حول السلطة والثروة، حتى باتت الخليفة العباسي مجرد رمز معنوي، يختبىء خلفه الحكام الفعليون في معظم المناطق التي كانت تخضع من الناحية الشكلية للخلافة العباسية بصفتها الرمزية.

وما أضعف الخلافة العباسيةأكثر هو نشوء الخلافة الفاطمية وتعاظم شأنها[1]، وهذه الأخيرة كانت شيعية (إسماعيلية) في حين أن العباسية كانت سنية. كما أن الخطر االفرنجي/الصليبي كان يمثل هو الآخر تحدياً من التحديات الكبرى التي واجهاتها الدولة العباسية.

الظروف التي مكّنت صلاح الدين من تاسيس الدولة الأيوبية

استعان الخلافاء العباسيون في مرحلة ضعف دولتهم بالقوى العسكرية المختلفة[٢]، وذلك للإبقاء على حكمهم واستمراريته في مواجهة الخصوم المنافسين في الداخل، وحماية نفوذهم في مواجهة الأخطار الخارجية الجدية التي كانت تمثلها الدولة الفاطمية من جهة؛ واهتمام الدول الغربية بالمنطقة، وسيطرتها على الساحل السوري تحت شعار تحرير بيت المقدس من جهة ثانية. و كانت العطيات والقرائن تشير إلى أن دائرة الاهتمامات والأطماع الغربية ستتسع لتشمل مصر، وربما شمال أفريقيا، وحتى شبه الجزيرة العربية، خاصة المناطق الساحلية والقريبة منها.

ولتجاوز كل ذلك، كانت هناك محاولات من قبل الحكام الخاضعين للخلافة العباسية، خاصة في العراق ومناطق الجزيرة ، وبالتعاون مع الفقهاء، وبعض الفرق الصوفية لتعبئة الناس، والترويج لفكرة إحياء المذهب السني. ويُشار هنا بصورة خاصة إلى كل من نظام الملك الوزير الفارسي للسلاطين السلاجقة طغرل بك، وألب ارسلان، وملك شاه[٣] ، والغزالي الفقيه والصوفي المعروف[٤]. وربما من المناسب أن نشير هنا إلى سيطرة البويهيين الشيعة على بغداد الأمر الذي مكّنهم من التحكّم في قرارت الخليفة العباسي. ولكن مع دخول السلاجقة القوي إلى بغداد عام ١٠٥٨م تم وضع حد للنفوذ البويهي، و بدأت المرحلةالسلجوقية السنية التوجه. و كان من الواضح أن الخليفة العباسي نفسه كان يميل في هذا المجال إلى السلاجقة، فإلى جانب التماثل المذهبي بينهما، كان هناك موضوعالتركيز على تحرير القدس، وذلك في إطار الأيديولوجية التي اعتمدت بهدف ضبط الأوضاع، وتعزيز القدرات، و سحب الشرعية من الخصوم، وذلك استعداداً لمواجهة المخاطر المتعددة المصادر[٥].

ويُشار هنا بصورة خاصة إلى جهود نظام الملك ١٠١٧-١٠٩٢م الذي أنشا المدارس لتعميق أسس المذهب السني، وإعداد الكوادر الإدارية من السنة لتنظيم الأمور وضبطها.

كما أن عماد الدين الزنكي ١٠٨٤-١١٤٦م كان له دور بارز في هذا المجال، واستمر هذا التوجه بقوة وعلى نطاق واسع، في عهد حكم ابنه نورالدين ١١٧-١١٧٤م.

في هذه الأجواء وصلت أسرة شادي بن مروان والد نجم الدين ايوب واسدالدين شيركو الأيوبية الطموحة إلى بغداد في عهد السلطان السلجوقي مسعود؛ ويبدو أن أحد عمال السلطان ويدعى مجاهدالدين بهروز عين شادي آمراً على قلعة تكريت، حيث توفي شادي، فحل محله ابنه نجم الدين[٦].

وبدأت الأسرة مشوارها في الشأن العام من قلعة تكريت، وشاءت الظروف أن يتم اللقاء بين الأسرة وعمادا لدين الزنكي الذي حل عليهم ضيفاً عام ١١٣١م بعد انكساره فيبغداد[٧]، ويبدو أن عمادالدين وجد في الأسرة الأيوبية عوناً يستفيد منهفي مشروعه المستقبلي الطموح الذي كان

يمتد ليشمل بلاد الشام، وتحرير مدن الساحل الشامي من الصليبيين، وإحياء المذهب السني عبر إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر.

وما يستنتج منالروايات الخاصة بتاريخ الأسرة الأيوبية وبداياتها، هو وجود نوع من التباين، وربما التكامل، بين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركو. إذ أن الأول كان يركّز على الحكمة والحنكة؛ في حين تميّز الثاني بمهاراته القتالية، وانجازاته الميدانية. وربما هذا ما يفسر سبب اقدام شيركو على قتل رجل في تكريت، الأمر الذي تسبّب في الاستغناء عن خدماتهما، ليغادرا مع أعضاء أسرتيهما، ويتوجها إلى عماد الدين الرجل الي استضافوه في وقت كان فيه بأمس الحاجة إلى المساعدة. وشاءت الأقدار، وفق الروايات، أن يتزامن قرار رحيلهم ، أو ترحيلهم، بناء على الروايات، مع ولادة يوسف الذي اشتهر أكثر في ما بعد بلقبه "صلاح الدين"[٨]،الذي سيكون له شأن كبير لاحقاً،ودور اساسي في توحيد بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر. ليستعد لمواجهة الصليبيين في حروب كر وفر، ومعاهدات وهدن، إلى أن كانت المعركة الكبرى في حطين عام ١١٨٧،[٩] وهي المعركة التي كانت مقدمة لتحرير غالبية مدن الساحل الشامي، وتحرير القدس نفسها التي طالما كانت الحلم الذي يرواد سائر المسلمين.

في هذه الورقة لن ندخل في تفاصيل انتصارات واخفاقات صلاح الدين الأيوبي،ولن نتوقف كثيراً عندنجاحاته التوحيدية، وحدود اتساع نطاق دائرة حكمه، ومشاريعه المستقبلية المتجددة؛ وإنما سنركز على المزايا الشخصية، والقدرات القيادية التي تميز بها؛ وخطواته الأساسية، واعتماده على القوة الناعمة، إلى جانب القوة الحازمة لبلوغ أهدافه، وحرصه على التوازنات، وحفاظه على جسور التواصل مع الأصدقاء والأعداء، والجمع بين الجانبين العسكري والمدني؛ حتى تمكن من إنشاء دولة مترامية الأطراف، ظلت باستمرار تضم قوميات وأديان ومذاهب مختلفة، تابعة، ولو بصورة شكلية للخلافة العباسية، ولكنها في الواقع الفعلي كانت موزعة بين أعضاء الأسرة الأيوبية، والمقربين منهم، واستطاعت أن تستمر متماسكة في حياة صلاح الدين، رغم كل التحديات التي واجهتها على المستويين الداخلي والخارجي.

ولكن مع وفاة صلاح الدين في دمشق بتاريخ ٤ آذار/ مارس١١٩٣،[١٠]تفاقمت الخلافات والمناكفات والصراعات بين أبناء صلاح الدين وأشقائه وبقية أفراد الأسرة الأيوبية ، لدرجة أن الأمور وصلت بينهم إلى درجة أنهم عقدوا الاتفاقيات مع الزعماء الصليبيين، ومع الزعماء المحليين في المناطق المجاورة لهم من أجل التغلب على التهديدات القادمة من جهة الأشقاء والأعمام والأقارب[١١].

وقد اختلف المؤرخون حول ماهية وطبيعة الدولة التي أسسها صلاح الدين، وتعرضت للتفكك بعد وفاته. هل تعتبر دولة كردية أم أنها دولة السلالة الأيوبية؟ أم كانت مجرد سلطة

أيوبية، أو حكم سلالة أيوبية استمر نتيجة توافر الظروف في حقبة معينة، سرعان مع تلاشت، وتحولت إلى مجرد ذكرى، وأصبح صلاح الدين نفسه إلى رمز لمقاومة الغزو الأجنبي، والحاكم المتمكّن الصالح العادل، القادر على المالشمل والتوفيق بين المتخاصمين الطامحين في النفوذ السلطوي والجاه بمختلف أشكالهما؟

وبناء على المضامين المتعددة الخاصة بالدولة التي أشرنا إليها في بداية هذه الورقة، يمكننا أن نتحدث من باب المجاز عن الدولة الأيوبية[12]، أو حتى عن السلالة الأيوبية في نطاق الدولة التي أسسها، وجمع أطرافها صلاح الدين. ولكن أن نركز على الطابع القومي لدولة لم تتخل عن طابعها الديني الإسلامي السني، وتبعيتها للخلافة العباسية، فهذا فحواه أذنا نفرض رؤية أيديولوجية حديثة على مرحلة كانت تسودها مفاهيم مغايرة، وتحركها سلوكيات تستلهم خططها وسياساتها من توجهات أيديولوجية وفكرية مغايرة.

الإشكالية المحورية التي تتمفصل حولها هذه الورقة تتمثل في الأسباب التي أدت إلى ارتباط الدولة الأيوبية، أو حكم السلالة الأيوبية بشخصية صلاح الدين، ودورها المتميز في النهوض بتلك الدولة، ومن ثم تراجع تلك الدولة، وتفككها مع مرض صلاح الدين ووفاته لاحقاً.

وكما أسلفنا، سنركز بصورة أساسية على الظروف والعوامل التي أعطت الفرصة لصلاح الدين، وأفسحت المجال أمامه؛ إلى جانب تناول صفاته الشخصية، ومعارفه وخبراته في الإدارة، ومهارته العسكرية، بالإضافة إلى استفادته من حكمة وحنكة المقربين منه ممن أرشدوه باستمرار، سواء من الأهل المقربين أم من الأصدقاء والعلماء والمؤرخين والمستشارين الذين وقفوا إلى جانبه في مختلف الظروف لا سيما الصعبة منها، ونخص بالذكر هنا أولئك الذين وجدوا فيه شخصية كاريزماتية قادرة على فرض احترامها على العدو قبل الصديق.

الظروف الموضوعية والمؤهلات الشخصية في حالة صلاح الدين:

الأمر الذي لا جدال حوله، هو أن العلاقة بين الظروف الموضوعية والمؤهلات الشخصية للقادة هي علاقة جدلية تفاعلية بين طرفيها. لا يمكن لشخصية قيادية مؤثرة أن تترك بصماتها على الأحداث، أو أن تثبت قدراتها القيادية في مرحلة ما، أو تساهم بصورة واضحة قوية في إحداث تغييرات نوعية في مجرى الأحداث من دون توفر العاملين المذكورين. فالظروف الموضوعية لا تؤدي بطبيعة الحال إلى ظهور القيادات التاريخية في ظل واقع عدم وجود من يمتلكون الخصائص التي تؤهلهم لأداء الأدوار الكبيرة التي تبلغ أحياناً حد الاستثناء أو المعجزة.

كما ان امتلاك المؤهلات والخصائص المتميزة لا يكفي لوحده من دون توفر الظرف التاريخي المناسب لبروز الشخصية القيادية الاستثنائية، لا سيما بالنسبة إلى المجتمعات التي لا

تمتلك المؤسسات التي تساهم في إعداد القيادات، وتزوّدها بالخبرات والامكاذيات المطلوبة لتأدية أدوار ترتقي إلى مستوى تطلعات الناس وطبيعة التحديات.

وفي مثال صلاح الدين الأيوبي، نلاحظ أن تفاعل العاملين كان في أوجه؛ الأمر الذي أدى من جهته إلى تألق شخصية قيادية تاريخية استثنائية، فرضت نفسها على الأحداث، وما زالت هذه الشخصية تثير اعجاب الشعوب والباحثين سواء في منطقتنا أم على المستوى العالمي؛ خاصة في دول أوروبا الغربية التي تمتلك تاريخاً مشتركا مع منطقتنا منذ أيام حروب الاسكندر المكدوني ٣٥٦ ٣٢٣ ق. م.، والحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م، مروراً بالاستعمار الحديث، وصولاً إلى يومنا الراهن.

فالمرحلة التي وصلت فيها اسرة شاديجد صلاح الدين إلى العراق قادمة من أذربيجان[١٣]، كانت متخمة بالأحداث والاحتمالات. الخلافة العباسية كانت في أواخر أيامها، تعيش في المركز أزمة متسعصية بعد أن تمكن الولاة والسلاطين في مختلف المناطق التي كانت تابعة رسمياً لها من الاستقلال بمناطقهم، والتحكّم بمواردها وتوجهاتها. فكانت العلاقة بينها وبين الخليفة من الناحية الشكلية طبيعية، يضفي عليها الخليفة الشرعية، وهي التي من المفروض أن تدعم الخليفة، وتدافع عنه في مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية، لا سيما اخطار الصليبيين والمغول. ولكن على الصعيدالإسلامي الداخلي كانت الدولة الفاطمية في مصر ٩٦٩ - ١١٧١م. تمثل تحدياً كبيراً بالنسبة إلى الخلافة العباسية. فالدولة الفاطمية كانت قد تمكنت من السيطرة على مناطق واسعة في شمال أفريقيا وعلى مصر، وكان لها نفوذ في منطقة في منطقة فلسطين، وتحاول الوصول إلى شبه الجزيرة العربية موطن الحرمين المقدسين[١٤].

فقد شاءت الظروف، كما أسلفنا، أن يتم التواصل بين والد يوسف (اسمه)- صلاح الدين (لقبه): نجم الدين وعماد الدين الزنكي قبل ولادة الأول في تكريت، ثم تطورت بعد أن قتل شيركو في تكريت عم صلاح الدين أحد الأشخاص المقربين من مجاهدالدين بهروز عامل السلطان مسعود ملكشاه في بغداد ، فطلب منهم بهروز ترك قلعة تكريت، والابتعاد عن المنطقة، فتوجهت الأسرة إلى عماد الدين الزنكي في الموصل ١١٣٧م، الذي يبدو أنه وجد في الأخوين: نجم الدين وشيركو من الصفات التي أقنعته بإمكانية الاعتماد عليهما في قلعة بعلبك ١١٣٩م، فكانت الرحلة بالنسبة لصلاح الدين، الذي يُقال أنه ولد ليلة إضطرارالأسرة للخروج من تكريت، مقدمة لبناء علاقة تاريخية مع بلاد الشام، ودمشق تحديداً[١٥].

ويبدو أن والد صلاح الدين وعمه قد تنبها باكراً للمواهب التي امتلكها صلاح الدين، فاهتموا بتعليمه واعداده الديني في العلوم الشرعية، والمعرفية خاصة في التاريخ، كما حرصت الأسرة في الوقت ذاته على اعدادهالبدني من خلال تدريبه على الفروسية ورمي القوس والصيد

وفنون القتال[١٦]. وبناء على المعطيات التي تذكرها كتب التاريخ، نستنتج أن صلاح الدين قد استفاد من والده من ناحية الصبر وبعد النظر، ومراعاة التوازنات والمعادلات التي كانت تتحكم في العلاقات بين القوى السياسية المؤثرة في تلك المرحلة، وذلك سواء ضمن الدولة الزنكية نفسها، أو على صعيد العلاقة بينها وبين الخلافة العباسية، وموقفها من الخلافة الفاطمية، والخطر الصليبي الذي كان يهدد ساحل بلاد الشام، بل كان يهدد حلب نفسها من خلال إمارة الرها ومنطقة الجزيرة[١٧].

وبناء على حصيلة التفاعل بين الظروف والمتغيرات السياسية في المنطقة، والمؤهلات الخاصة التي تميزت بها الأسرة الأيوبية، كلف نورالدين محمود، خَلَف عمادالدين الزنكي وابنه، اسد الدين شيركو بالتوجه إلى مصر لمساعدتها على مواجهة المخاطر الصليبية عام ١١٦٤، وإعادة شاور إلى الوزارة[١٨]. هذا في حين أن الهدف الأساسي بالنسبة إلى نورالدين كان يتمثل في القضاء على الخلافةالفاطمية، وإعادة مصر، ولو من الناحية الرسمية الشكلية إلى حضن الخلافة العباسية. وكان من الواضح أن القوى المتصارعة على حكم مصر، كانت على دراية بهذا الهدف، لهذا كانت مترددة بين طلب المساعدة لمواجهة الصليبيين، ومواجهة الخصوم الذين كان يستعدون للسيطرة من خلال الاعتماد على دعم الصليبيين، وبين خشيتها من تحكم نورالدين بمصر، وإنهاء الحكم الفاطمي فيها، وهو الأمر الذي حصل في نهاية المطاف.

ويبدو أن عم صلاح الدين، أسد الدين شيركو كان قد لاحظ المواهب القتالية والقيادية التي كان يتمتع بها ابن شقيقه صلاح الدين، لذلك أصر على اصطحابه معه إلى مصر ليكون إلى جانبه في الحملة العسكرية التي توجهت إلى هناك بأوامر نورالدين، وبناء على طلب وزير الخلفية الفاطمي شاور.

وكانت أولى المعارك التي شارك فيها صلاح الدين إلى جانب عمه أسد الدين شيركو، وكان عمره في ذلك الحين حوالي ٢٦ عاماً[١٩]. غير أن شاور حينما أدرك أن هدف حملة شيركو هو أبعد من موضوع إعادته إلى الوزارة مقابل الحصول على نسبة من دخل مصر، استعان بـ "أمالريك" ملك القدس ليحول دون رغبة نورالدين في إعادة مصر إلى دائرة الخلافة العباسية، فعادت الحملة الشامية الأولى من دون بلوغ أهدافها، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الحملة الثانية.[٢٠]

ولكن الأمور أخذت منحى آخر في الحملة الثالثة التي أمرها بها نورالدين بعد تلقيه رسالة من الخليفة الفاطمي العاضد الذي كتب إليه بخط يده، "يناشده ألا يدع مصر تسقط في أيدي "أمالريك"، لأن العواقب ستكون وخيمة. كما أكد أن التعاضد الإسلامي يتطلب تجاوز الاختلافات المذهبية"[٢١]. وأصرّ شيركو مرة أخرى على أن يكون صلاح الدين معه في الحملة الجديدة، رغم أن الأخير كان قد قرر عدم التوجه إلى مصر بعد تجربتين أُصيب خلالهما بحالة من

الإحباط، ولكن اضطر إلى مرافقة عمه بناء على الحاح الأخير، وربما بجهود اقناعية من جانب والده، وبتوجيه من نورالدين نفسه. ومما ينسب إلى صلاح الدين أنه قال لابن شداد حول ذهابه إلى مصر في تلك الحملة أنه كان أشبه بذهابه إلى قبره، حتى أنه قال لعمه شيركو الذي طلب منه الذهاب، بأنه لن يذهب حتى ولو أعطوه مُلك مصر، و"لكنه ذهب وأعطي مُلك مصر"[٢٢].

توجه صلاح الدين ضمن الحملة الشامية الثالثة بضغط من عمه ونورالدين، وذلكلدفع المخاطر الصليبية عنها. غير أن الهدف الأبعد لنورالدين من تلك الحملة كان، كما اشرنا إلى ذلك، على الأكثر هو التمهيد لإنهاء الخلافة الفاطمية التي كانت تعيش في واقع الحال أضعف مراحلها، إذ كان الحكم الفعلي بيد الوزراء الذين كان الخليفة الفاطمي يغدق عليهم لقب السلطان، مقابل حمايتهم له، والابقاء عليه حاكماً اسمياً في قصره، مقابل الشرعية التي يتسمدونها منه.

وهكذا ساعدت الظروف صلاح الدين، ومكّنته من أخذ الدور القيادي عبر منصب وزير الخليفة الفاطمي، ليثبت مع الوقت مؤهلاته القيادية الاستثنائية التي اعترف بها واحترمها الأصدقاء والأعداء؛ وباتت شخصية صلاح الدين على مدى أكثر من ثمانمائة عام مصدر استلهمام للقادة العسكريين والسياسيين وحدهم، بل للأدباء والفنانيين والناس العاديين أيضاً.

ويُشار في هذا المجال إلى عامل الموت الذي ساعد صلاح الدين، إذا جاز التعبير، وهو الأمر الذي تنّبه له الكثير من المؤرخين.

فبعد شهرين من تسلّم أسد الدين شيركو الوزارة في مصر، على إثر مقتل الوزير شاور الذي يعتقد بعضهم بأنه كان بناء على اتفاق بين كل من شيركو والخليفة الفاطمي العاضد، في حين أن هناك من يرى بأن صلاح الدين هو الذي كان وراء ما جرى لشاور[٢٣]،أصبح صلاح الدين هو الوزير في مصر نتيجة وفاة عمه شيركو[٢٤]، الأمر الذي فتح له الأبواب الواسعة أمامه، ليكون عملياً في موقع قيادة مصر في ظل الحاكم الفاطمي العاضد الضعيف[٢٥]؛ الذي توفي هو الآخر بعد اسبوع من اسقاط اسمه من الخطبة بناء على إلحاح نورالدين[٢٦]، ونتيجة اقتناع صلاح الدين بان الظرف قد بات مساعداً لذلك، وقد فتحت وفاة الخليفة الفاطمي المجال أمام صلاح الدين ليكون هو الحاكم الفاعلي، وليس الرسمي إذا صح التعبير،إذ بات يحكم باسم الخليفة العباسي. وكان صلاح الدين في هذا المجال حريصاً على التواصل المستمر مع الخليفة العباسي للحصول على إقرار بشرعية حكمه، هذا رغم أن تبعيته الأساسية كانت لنورالدين الذي كان من المفروض أن يكون هو من جانبه حلقة الوصل، أو السلطة الوسيطة بين صلاح الدين والخليفة العباسي.

أما تفسير موافقة القادة العسكريين والمتنفذين في الدولة المصرية سواء من الكرد والترك، أم من المماليك وغيرهم على أن يكون صلاح الدين هو الوزير بعد وفاة شيركو، فهناك من

يرى بخصوص هذا الحدث، بأنهم وافقوا على تولي صلاح الدين مهام الوزارة خلفاً لعمه، اعتقاداً منهم بأنه يفتقر إلى الخبرة والتجربة، وسيفشل في عملية الحفاظ على التوازنات مع نورالدين والصليبيين، وعلى المستوى المصري، الأمر الذي سيفسح المجال أمامهم للتحكّم به، ومن ثم بالدولة[٢٧].

وكالعادة، تبدأ الخصومات بجهود من الحساد والوشاة والمتضررين بين القادة المتميزين ورؤسائهم؛ وهكذا كان الأمر بين صلاح الدين ونورالدين[٢٨]، ويُقال أن الأخير أراد التوجه إلى مصر بحجة المساعدة في قتال الصليبيين. وقد أقلق هذا الخبر صلاح الدين وقواده في مصر، حتى أن هؤلاء، ومن بينهم تقي الدين ابن أخيه، أشاروا على صلاح الدين بضرورة عرقلة ذلك التوجه صراحة؛ وكاد صلاح الدين أن يأخذ برأي الجماعة لولا تدخل والده الذي كان صلاح الدين قد طلب الإذن من نورالدين ليتمكن من القدوم على إلى مصر، حتى يكون إلى جانبه مع عدد من أفراد أسرته، ليساعدوه في مهامه الجديدة الكبيرة. فقد تنبه نجم الدين للخطأ الذي أوشك أن يقع فيه ابنهصلاح الدين نتيجة سوء التقدير أو قلة التجربة، أوبفعل تأثره بحماس قواده، أو ربما بفعل النزعات الشخصية والاعتداد بالنفس فتدخل في اللحظة المناسبة، وطلب من ابنه أن يحافظ بكل احترام على علاقة الود والتبعية مع نورالدين، مبيناً لصلاح الدين بأن هذا الرأي ليس رأيه وحده، وإنما هو رأي خاله أيضاً ، خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي الذي يُقال، كما ورد في ما تقدم، أن وزارة مصر كانت قد عُرضت عليه أيضاً، ولكنه امتنع عن القبول بها، واقترح اسم ابن اخته صلاح الدين ليكون هو الوزير. وطلب نجم أيوب من ابنه أن يكتب لنورالدين ما يؤكد استمراريته في تبعيته، والتزامه بالأمر الذي يراه. وما يُستنتج من الروايات التاريخية المتوفرة حول هذا الموضوع هو أن صلاح الدين أخذ بهذا الرأي في نهاية المطاف، وكان رأياً سياسياً حكيماً بعيد النظر، أذقذ صلاح الدين من اندفاعة غير محسوبة العواقب[٢٩]. ولم يمر وقت طويل على تسلم صلاح الدين للوزارة حتى توفي نورالدين الزنكي في أيار/ مايو١١٧٤[٣٠]، ومن ثم توفي أمالريك ملك القدس الصليبي في تموز/ يوليو ١١٧٤م[٣١]، ، الأمر الذي فتح المجال أمام صلاح الدين للتصرف باستقلالية بعد أن تحرر من سلطة نورالدين التوجيهية المرجعية، وحصول ضعف واضح في الجبهة المعادية له من جهة الصليبيين.

وباتت العلاقة الأساسية مع الخليفة العباسي في بغداد، الذي كان من الضعف إلى الحد الذي لم يكن بمقدورهالتدخل في أي شأن من شؤون إدارة صلاح الدين لمصر وغيرها من المناطق الخاضعة لسلطتهالفعلية، بل على النقيض من ذلك، كان الخليفة العباسي نفسه في حاجة إلى قوة صلاحالدين، واعتراف الأخير ولو شكلياً بسلطته، ليظهر في مظهر خليفة المسلمين الذي يشمل حكمه العراقوبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وبطبيعة الحال شبه الجزيرة العربية التي

ظلت دائماً الرمزية التي تحرص عليها كل خلافة إسلامية، لأنها مهد الإسلام، وموطن الحرمين المقدسين، في حين أن موضوع تحرير القدس كانت القاسم المشترك الذي يمثل توافق المسلمين من مختلف المذاهب حوله، والشعار الذي يشدّ عصبهم.

وبعد إنهاء الخلافة الفاطمية، ووفاة آخر خليفة فاطمي،والتطورات التي كانت على إثر وفاة نورالدين، والضعف الذي تغلغل إلى دولته، غدا صلاح الدين هو الآمر الناهي في عمليات الإعداد لمعركة تحرير القدس والساحل الشامي، رغم وجود تباينات ومنغصّات هناك وهناك، تمكن الأخير من تجاوزها في نهاية المطاف، فوحد الصفوف والإمكانيات، ودخل في مواجهة مفتوحة طاحنة مع الصليبيين، وكان الانتصار الأكبر في حطين بتاريخ ٤- تموز/يوليو ١١٨٧[٣٢]، ولكن كل ذلك لم يكن له أن يتحقق لولا توفر جملة من الخصائص والفضائل المتميّزة التي تحلّت بها شخصية صلاح الدين، وتمكّن بفضلها من تحقيق انجازات كبرى، كانت، وما زالت، تثير الاعجاب، وتمثل موضع اعتزاز مختلف الأجيال رغم مرور كل هذا الوقت.

وهنا نكون قد وصلنا إلى دور العامل الذاتي الخاص بالشخصية [٣٣] في تفسير سر النجاح الذي حققه صلاح الدين الذي بلغ حد الإعجاز، هذا مع التأكيد مجدداً أهمية التفاعل بين هذا الجانب الذاتي والجانبالموضوعي الذي أعطى الفرصة لصلاح الدين ليثبت جدارته القيادية المتيزة.

فالانجازات الكبرى التي حققها صلاح الدين خلال فترة زمينة قصيرة تعد بحد ذاتها من المسائل التي تستوقف وتثير الإعجاب؛ فقد استطاع توحيد سوريا ومصر، وأُعلن نفسه سلطاناً على مصر وسورية بمباركة من الخليفة العباسي[٣٤]؛ واستطاع أن يُدخلمنطقة الجزيرة الفراتية ضمن دائرة حكمه؛ كما كان يسعى أجل الوصول إلى مناطق واسعة في شمال أفريقيا، هذا بالإضافة إلى اليمن، وأولى أهمية خاصةلحماية الحرمين المقدسين في شبه الجزيرة العربية.

هذا في الوقت الذي كانت فيه المنطقة تعج بالقوى الإقليمية والخارجية التي كانت تسعى للسيطرة، وتعمل وتوسيع دائرة حكمها.

فالوحدة السياسية التي تمكّن صلاح الدين من بنائها بين كل تلك المناطق، تؤكد رؤيته الاستراتيجية التي كانت تركز على أهمية توحيد طاقات شعوب المنطقة تحت راية جامعة وجدها مع الزنكيين في الإسلام السني، الذي كان يتمثل في الخلافة العباسية، وهي الخلافة التي كانت تعيش في ذلك الحين، وفق ما سلف ذكره، أضعف حالاتها. إذ كان الخليفة قد بات مجرد رمزية تضفي الشرعية على سلطة من استنجد بهم الخليفة ليحافظوا على حكمه في مواجهة المنافسين الطامعين في الخلافة أو السلطة. فكان الاعتماد على البويهيين أحياناً[٣٥]، والسلاجقة[٣٦] أحياناً أخرى ، وعلى الكرد في بعض الأحيان. وقد استمر وضع الخلافة العباسية على هذا المنوال خلال الدولة الأيوبية، ومن ثم تفاقم الوضع أكثر مع اتساع نطاق السلاطين، ولكن الضربة

القاضية كانت على يد هولاكو لاحقاً الذي دخل بغداد عاصمة الخلافة عام ١٢٥٨م[٣٧]، ودمّرها، وقتل الخليفة العباسي نفسه، ليضع نهاية للخلافة العباسية بصورة قاطعة.

ولكن رغم كل ضعفها، كانت الخلافة المعنية (العباسية) تعتبر القاسم المشترك بين العرب والكرد والأتراك الذين كانوا يمثلون الغالبية السكانية في المناطق التي شملتها الدولة الأيوبية.

كان صلاح الدين حريصاً على عدم إثارة النزاع المذهبي بين السنة والشيعة، بل استمر فترة وزيراً للخليفة الفاطمي؛ وظل لوقت طويل يتريث في تنفيذ تعليمات نورالدين محمود الذي كان يطالبه بالإسراع في إنهاء الخلافة الفاطمية[٣٨]، والإعلان عن تبعية مصر للخلافة العباسية. فهو لم يجد في الشيعة مصدر تهديد على خططه في مقاومة الصليبيين، رغم حرصه على توحيد جميع الطاقات تحت خيمة شرعية الخلافة العباسية التي كانت تعيش في تلك المرحلة أضعف مراحلها. أما علاقته مع الأقباط فلم تكن البداية جيدة، وربما كان ذلك بفعلانعكاسات الصراع مع الصليبيين، وكذلك بفعل تدخلات رجال الإدارة والمستشارين من الفقهاء السنة، ولكن العلاقة أصبحت أفضل لاحقاً، وعاد الكثير من الأقباط إلى الوظائف التي كانوا قد أبعدوا عنها[٣٩]. كما كان صلاح الدين حريصاً على علاقة طبيعية مع اليهود، ويُشار هنا إلى علاقته الخاصة مع أبي عمران موسى بن ميمون الطبيب والمفكر اليهودي، الذي كان قد هاجر إلى مصر من الأندلس حيث تتلمذ على العديد من العلماء والفلاسفة المسلمين، ومنهم ابن رشد[٤٠].

وفي الوقت ذاته، كان صلاح الدين مدركاً لأهمية التواصل مع الفرنجة/الصليبيين، رغم حالة الحرب القائمة بينه وبينهم. فقد كان يحاول الوصول إلى تفاهمات ومعاهدات معهم من شأنها اعطائه فرصة لاستعادة قواه، وإعادة تنظيم جيشه، وترتيب الأمور في مختلف المناطق التي كانت خاضعة لحكمه. وذلك من أجل قطع الطريق على المنافسين المحليين، والمصادرة على احتمالات قيام بعضهم بالتواصل مع الصليبيين ضده[٤١].

وفي الوقت ذاته، كان صلاح الدين يحرص على العلاقة الرسمية مع الخلافة العباسية، لذلك واظب على سياسة استمرارية التواصل مع الخليفة عبر الرسائل والوفود عبر الوفود، ليؤكد تبعيته له، ويحصل في المقابل على ما يسبغ الشرعية على حكمه في مصر وسوريا[٤٢]. كما كان يطلب العون من الخليفة وقت اللزوم، متجاوزاً بذلك نورالدين، الأمر الذي دفع ببعضهم إلى اتهامه بكونه مغتصب للسلطة التي كانت من المفروض أن تكون وفق معاييرهم لنورالدين[٤٣]، الأمر الذي ربما ولّد الهواجس لدى نورالدين محمود نفسه، ولكن الأمور بين الرجلين لم تصل إلى حد الخصومة العلنية والنزاع المفتوح؛ وهو الأمر الذي حصل بعد وفاة نورالدين، إذ حاول بعضهم التمسك بورقة وارث نورالدين ابنه صالح الذي احتفظ به حكام حلب، بهدف استخدام شرعيته

للتشكيك في شرعية حكم صلاح الدين. وقد وصل الأمر بحكام حلب إلى حد التواصل مع الصليبيين لمساعدتهم ضد صلاح الدين، كما تواصلوا مع الحشاشين من أجل اغتيال صلاح الدين[٤٤].

من جهة أخرى عُرف صلاح الدين بقدرته على إدارة الخلافات، ومهارته في الوصول إلى تفاهمات، وبناء العلاقات، واحترام الذات وإيجاد المخارج سواء ضمن الأسرة الأيوبية أم خارجها[٤٥]. كما أشتهر بتسامحه في التعامل مع الخصوم والأعداء، لا سيما أصحاب الحاجة منهم.إذ لم يأمر صلاح الدين بقتل المدنيين، وأعفى عن أولئك الذين لم يتمكنوا من دفع الفدية في الكثير من المدن التي استردها من الصليبيين خاصة القدس[٤٦].

كما أنه ظل ملتزماً بعهوده ووعوده حتى اعتبر هذا الأمر من بين نقاط الضعف عليه؛ إذ سمح مثلاً لقائد صليبيهو"جاي لوزنيان" بالتوجه نحو عكا وصور، الأمر الذي مكّنه من تنظيم المقاتلين من جديد، والإعداد لمواجهة صلاح الدين فيما بعد[٤٧].

إلا أن مشروع صلاح الدين التوحيدي لم يكن له أن يكتمل من دون وجود قوة عسكرية كافية يعتمد عليها في معاركه المتواصلة مع الافرنجة/ الصليبيين، غير أن الامكانيات المادية للدولة لم تكن تسمح بإنشاء جيش دائم له هيكليته المتكاملة؛ لذلك كان الاعتماد الأساسي على المتطوعين، وعلى رجال الزعماء المحليين، وحكام المدن والمناطق من الزنكيين والكرد وغيرهم، هؤلاء الذين كانوا يجتمعون تحت راية الإسلام، وبهدف تحرير القدس، وضرورة مواجهة القوى الخارجية التي كانت تهدد مقدسات المسلمين، وذلك بموجب جهود التعبئة التي كان يقوم بها الفقهاء، والأئمة من خريجي المدارس التي كان قد بدأ بها نظام الملك بإنشائها في بغداد وغيرها من المدن، ثم استمرت تلك السياسية في عهد عماد الدين الزنكي، وابنه نورالدين، وصلاح الدين الذي شجع من ناحيته إنشاء تلك المدارس في كل من سوريا ومصر.

فموضوع تحرير القدس كان موضوعاً للتعبئة، كما هو حال اليوم لدى العديد من القوى الإسلامية، هذا رغم أن هذه الأخيرة كانت مجرد مدينة من المدن الكثيرة التي سيطر عليها الافرنجة/الصليبيون في الساحل الشامي، وكانوا يتطلعون للسيطرة على مصر. بل كانوا قد سيطروا على رها نفسها، ليتمكنوا من تأمين خطوط الإمداد ما بين قواتهم والقسطنطينية. إلى جانب امكانية الامتداد من هناك نحو الشرق باتجاه العراق. ولكن بصورة اساسية كان التركيز الصليبي على مناطق الساحل، وذلك لسهولة عملية الوصول إليها بحراً من أوروبا.

والمشكلة التي عانى منها صلاح الدين باستمرار، لا سيما في المعارك الكبرى، تمثلت في الخلافات بين الأمراء، وعدم التزامهم بالخطط كما ينبغي. وانسحابهم مع قواتهم في الأوقات التي يريدونها، أو تناسبهم بحجة الظروف الطبيعية والإشغال. وكل ذلك كان يستوجب

شخصية قيادية صبورة، قادرة على تحمّل الجميع، وإيجاد حالة تكاملية بينهم، وهذا ما كان صلاح الدين يقوم به استناداً إلى المعطيات التاريخية المتوفرة. ولكنه كان في بعض الأحيان يواجه الإخفاق أو الهزيمة كما حصل عند تل الجزرة عام ١١٧٦م في المواجهة التي كانت بين جيشه وجيش "بلودين"[٤٨].

صلاح الدين بين القوة الصلبة والقوة الناعمة

من الخصائص التي تميز بها صلاح الدين أنه لم يتخذ من القوة العسكرية وحدها وسيلة لتوسيع نطاق دولته، وتعزيز اركان حكمه؛ بل كان يحرص على الجمع بين القوة الصلبة والقوة الناعمة إذا صح التعبير. ومما ينسب إليه في هذا المجال قوله: "إنني لم أفتح البلاد بسيفي، وإنما بقلم الفاضل" أي القاضي الفاضل[٤٩].

ففي الميدان العسكري خاض الكثير من المعارك التي تشهد لها كتب التاريخ، وكان يقودها في معظم الأحيان بنفسه، ويُشرف على وضع الخطط وتنفيذها، وكان إلى جانب المقاتلين يشد من أزرهم، ويرفع من معنوياتهم.

ويُشار هنا إلى معركة حطين بصورة خاصة، والمعارك التي حررت مدن ساحل الشام.

ولكنه في الوقت ذاته كان يفرض احترامه عبر الاعفاء عن الأسرى، وارسال الهدايا إلى خصومه، وتقديم الأموال عند اللزوم إلى الزعماء المحليين، وترفعه عن الاستيلاء على الأموال لذاته. ويحرص على تنظيم الأمور الإدارية، وإنشاء المؤسسات الخدمية والانتاجية لتأمين احتياجات الناس، والإسهام في تنشيط الحركة التجارية، إلى جانب بناء االتحصينات العسكرية[٥٠].

وفي الوقت ذاته، كان يبني المدارس، ويشجع بناءها، ويقدر العلماء ورجال الدين ويحترمهم. بل كان هناك نوع من التفاعل بين القيادات العسكرية ورجال الدين، ولا غرابة في ذلك طالما أن الإسلام كان ايديولوجية الدولة، وهو الذين يجمع بين مختلف القوميات في الدولة المترامية الأطراف التي كان صلاح الدين يقودها من جبال كردستان شرقاً إلى ليبيا غرباً، ومن ديار بكر شمالاً إلى اليمن جنوباً.

من جهة أخرى، كان صلاح الدين حريصاً على التوازنات المجتمعية على مستوى الداخل وعلىمستوى العلاقات مع القوى الخارجية المؤثرة في الجوار.

سياسة صلاح الدين في الإعتماد على الأقارب والثقاة

لقد أدرك صلاح الدين وهو في مصر أهمية الاعتماد على والده وأقربائه في إدارة شؤون بلد كبير بسكانه وموارده ومشكلاته وأهميته، فاستأذن نورالدين محمود ليسمح له بذلك. وقد اسهمت هذه الخطوة في إبراز السلالة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين واستمرت في الفترة ما بين ١١٧١-١٢٥٠م. ولكن هذه الخطوة أسهمت من جهة أخرى في أضعاف الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح

الدين، إذتمزقت، و شهدت الخصومات بين الأشقاء وابناء العمومة، الذين تحالفوا مع القوى المتربصة، خاصة مع الصليبيين ضد بعضهم بعضاً، الأمر الذي يؤكد مجددا أهمية الدور القيادي الذي قام به صلاح الدين حتى تمكن من توحيد طاقات المتنافسين.

واللافت في هذا المجال أنه اعتمد على بعض الثقات من خارج إطار الأسرة الأيوبية، ويذكر من هؤلاء القاضي الفاضل، وعماد الأصفهاني، وعيسى الهكاري الكردي، ومظفر الدين كوكبوري، وكمال الدين الشهرزوي، وبهاء الدين ابن شداد بصورة خاصة، إلى جانب العديد من القادة العسكريين والقضاة والعلماء، ولكن الحكم كان بيد أعضاء الأسرة الأيوبية الذين أعطوا الأولوية للسلطة وامتيازاتها، وأهملوا مسألة الشرعية التي ركز عليها صلاح الدين كثيراً، .

كان صلاح الدين يحرص على الاستماع إلى الرجال الذين كانوا يحيطون به من الموجهينوالمستشارين والفقهاء ورجال الدين، ويحترم آراءهم، ويتراجع في بعض الأحيان عن قرارته، حينما يشعر بأن املقربين منه لا يوافقونه عليها. ويُشار هنا على سبيل المثال إلى أخذه برأي والده الذي نصحه بعدم الامتثال لرأي رجاله الذين توافقوا على منع وصول جيش نورالدين إلى مصر، وذلك خوفا منهم على مواقعهم. فوالد صلاح الدين، كان يدرك أهمية السياسة التوازنية، وضرورة المحافظة على احترامه لإرادة نورالدين الذي كان يعد صلاح الدين في نهاية المطاف تابعاً له، وصل إلى مصر بناء على توجيتاته وتعلمياته وأوامره.كما كان صلاح الدين، يأخذ بآراء عبدالرحيم بن علي البيساني الملقب بالقاضي الفاضل، الذي كان يعتبر ذراع صلاح الدين الأيمن في إدارة الدولة واعتماد الإصلاحات.وكان القاضي الفاضل من ناحيته يجد في صلاح الدين شخصية تاريخية في مرحلة مفصلية[٥١].

ولكن صلاح الدين لم يسلم من النقد سواء من جانب المعاصرين له، أو من قبل الباحثين في وقتنا الحاضر. فمن بين أهم المنتقدين لصلاح الدين ممن عاصروه يشارهنا إلى ابن الاثير،صاحب الكامل في التاريخ، الذي كان يرى، كما ورد سابقاً، بأن صلاح الدين قد اغتصب السلطة من نورالدين.

ومن بين الذين انتقدوا صلاح الدين في وقتنا المعاصر، يُشارهنا إلى حسن الأمين في كتابه: صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، الذي يرى بأن طريقة صلاح الدين المتثملة في الاحتماء خلف راي الجماعة، كانت في واقع الأمر محاولة منه لتحميل الآخرين مسؤولية قراراته، فهو كان يريد أن يظهر بأن ما يفعله لا يمثل رايه الشخصي، وإنما هو رأي الجماعة الي توافقت على المصلحة العامة للدولة أو الأمة[٥٢]، وينتقد اسلوب صلاح الدين في تكليف أعضاء أسرته بإدارة مختلف المناطق الدولة[٥٣]، كما ينتقد أساليبه في المفاوضات مع الصليبيين وتنازله لهم عن بعض المناطق[٥٤].

إدارة صلاح الدين

اعتمد صلاح الدين نظاماً إدارياً مرناً وأولا مركزياً إذا جاز لنا استخدام هذه المصطلحات المعاصرة. فهم لم يكن يتدخل في تفاصيل حكم الولاة والسلاطين- المماليك، وهؤلاء كانوا في غالبيتهم من أبنائه وأشقائه وابنائهم، وهذه نقطة تسجل على صلاح الدين. ورغم تفهمهلنوازع الحكم، وطبيعة المنافسات التي قد تحدث بينهم نتيجة عوامل الحسد والغيرة، إلا أن الأمور كانت لا تسير وفق تطلعاته، وهذا ما أشار إليه من كانوا قريبين منه، ومنهم ابن شداد[٥٥].

ورغم تنقّل صلاح الدين المستمر بين مختلف المناطق، مع نزوعه الدائم نحو دمشق التي عاش فيها سنوات صباه وشبابه، وتوفي فيها عام ١١٩٣. كان حريصاً على متابعة شؤون الدولة، ومراقبة أوضاعها عبر نظام فاعل من العيون والمتابعين (المخابرات). كما كان يطلب من الولاة إرسال المقاتلين للمشاركة في المعارك المستمرة التي كان يخوضها بصورة خاصة مع الصليبيين، ومع القوى الأخرى سواء المحلية أو الخارجية منها التي كانت تشكل خطراً على أمن واستقرار الدولة.

من جهة أخرى، تمكن صلاح الدين بنزاهته وتواضعه، وحرصه الدائم على مساعدة الناس من المسلمين وغير المسلمين، من كسب احترام ودهم وأفئدتهم. وفي المقابل كان الجهود المضنية التي يبذلها في عمليات للتخطيط للمعارك وقيادتها، والتفرغ للمفاوضات ومستلزماتها إلى جانب التفرغ لشؤون الحكم، ترهقه، وتضعفه صحياً.

ولكنه في جميع الظروف كان يحافظ على علاقاته الودية مع رجال دولته، ومع العلماء ورجال الدين والوجوه المجتمعية، ويحترم باستمرار مستشاريه ومساعديه في الدائرة الضيقة المحيطة به، يستمع إليهم، ويتحمل انتقاداتهم، ويأخذه بما يراه سديداً من آرائهم، كل ذلك منحه قدرات إضافية مكّنته من ضمان دعمهم ومساندتهم له، الأمر الذي ساعده على تحمل المهام الجسام التي كانت تنتظره، والتحديات الكبرى التي كانت تواجهه.

الأيوبيون بعد وفاة صلاح الدين

بعد وفاة صلاح الدين بدأت الخلافات بين أبنائه وأعمامهم، لا سيما الملك العادل الذي يستشف مما كُتب حوله من جانب المؤرخين بأنه كان مؤهلاً أكثر من غيره لقيادة الدولة الأيوبية، والمحافظة على تماسكها، والمواظبة في السياسية العامة التي كان صلاح الدين قد وضع أسسها، وهي سياسة الاستمرار في مواجهة الأطماع الصليبية، فهي هذه كانت هي التي تضفي الشريعة على الحكم الأيوبي، وهي التي كانت توحّد مواقف المسلمين، وتضمن دعمهم للدولة الأيوبية. ولكن الذي حصل هوأن الصراعات سرعان ما ظهرتبين أبناء صلاح الدين أنفسهم، خاصة بين الأفضل علي والعزيز عثمان، وهي الصراعات التي استطاع الملك العادل استغلالها ليبعدهما

على الحكم؛ ويتفرغ لمواجهة طموحات الملك الظاهر غازي الذي كان يحكم حلب، ونتيجة هذه الخلافات البينية ضمن الأسرة الأيوبية، اعتمد الملك العادل سياسة المهادنة مع الصليبيين في محاولة منه لضبط أمور الدولة الأيوبية في الداخل، الأمر الذي أدى من ناحيته إلى زيادة حدة المنافسات بين الأمراء والقادة الكرد والأتراك؛ وهي المنافسات التي كانت قد بدأت اصلاً بعد وفاة أسد الدين شيركو، وعودة الكثير من القادة العسكريين الأتراك، في ذلك الحين إلى مناطقهم، أو إلى الإقطاعيات التي كانوا قد حصلوا عليها، وذلك مع تولي صلاح الدين مهام الوزارة في مصر.

كما أدت الخلافات ضمن الأسرة الأيوبية إلى تزايد حدة أطماع القوى المجاورة في ممتلكات الدولة الأيوبية، وعودة التركيز الصليبي على موضوع استعادة القدس والمحافظة عليها عبر السيطرة على مصر. وقد بلغ الأمر بابن صلاح الدين الأفضل إلى الاستعانة بأمير سلاجقة الروم كيكاوس في مواجهة عمه، إلا أنه تراجع عن اتفاقه معه بعد أن تبين له أن الأمير السلجوقي كان يريد في واقع الحال السيطرة على بلاد الشام، وربما مصر لاحقا. ومع وفاة الملك العادل عام ١٢١٨م، عادت مشكلة الخلافات على الحكم بين أبنائه المعظم عيسى الذي كان يحكم في الشام الجنوبي، والأشرف موسى الذي كان يحكم في الشام الشمالي، والكامل الذي كان يحكم في مصر. وكان التحالف بين المعظم عيسى والأشرف موسى في مواجهة الكامل؛ وقد بلغ بهم الأمر إلى استعانة بالخوارزميين والصليبيين في مواجهة بعضهم بعضاً، وعقدوا الاتفاقيات مع الصليبيين، وتم تسليمهم بيت المقدس ثانية عام ١٢٢٩م؛ وكل ذلك أضعف الدولة الأيوبية من الداخل، وجعلتها خائرة القوى، عاجزة عن مواجهة القوى الخارجية المتربصة، وانتهى الأمر في مصر بسيطرة المماليك على الحكم عام ١٢٥٠م؛ لتبدأ مرحلة أفول الدولة الأيوبية، التي استمدت صيتها من قوة وحكمة وحنكة مؤسسها صلاح الدين، ولكن نقطة الضعف التي كانت تتمثل في النظام الإداري الفضفاض، وعدم وجود مؤسسات راسخة كان من شأنها ضبط الأمور، وتحقيق صيغة من التكامل بين أعضاء الأسرة الأيوبية عوضاً على التناحر من أجل السلطة؛ وربما كان لوفاة صلاح المبكرة دور في هذا الأمر، إذ لم يتمكن من التفرغ كما ينبغي لمسألة ترسيخ الحكم، ووضع المحددات التي كان من شأنها إدارة الخلافات ضمن الأسرة الأيوبية بصورة افضل.

ومع اسقاط الحكم الأيوبي في مصر من قبل المماليك، واسقاط الخلافة العباسية من قبل هولاكو، دخلت المنطقة مرحلة جديدة من الفوضى والدمار. لأن المغول انتشروا في المنطقة بأسرها، وقضوا على الكثير من الإمارات الأيوبية، سواء في منطقة الجزيرة أم في آسيا الصغرى وسورية.

ولكن مع انتصار المماليك على المغول عين جالوت عام ١٢٦٠، بدأت مرحلة جديدة، شهدت ظهور الدولة العثمانية التي حققت انتصارات في أسيا الصغرى وأوروبا، ثم دخلت في صراع عنيف

مع المماليك، وانتصرت عليهم في معركة مرج دابق بقيادة السلطان سليم الأول الذي تمكن من إلحاق هزيمة نكراء بجيش قانصوه الغوري وكان ذلك عام ١٥١٦.

وعلى إثر ذلك تمكن العثمانيون منالسيطرة على كامل المناطق التي كانت تقوم عليها الدولة الأيوبية في عز قوتها، وهكذا اصبحت الدولة الأيوبية مجرد ذكرى. ولكن في جميع الأحوال ظل اسم صلاح الدين موضع تقدير واعتزاز المسلمين، وظلت بطولاته وانجازاته في الميادين الإدارية والعمرانية والتعليمية وغيرها مادة ثرية استلهم منها الكتاب والباحثون والفنانون الكثير على مدىالقرون[٥٦].

أما ما مكّن الدولة العثمانية من البقاء على مدىنحو ستة قرون ١٢٩٩-١٩٢٤م، وهي مدة طويلة مقارنة بالعقود السبعة والنصف ١١٧٤-١٢٥٠م التي شكلت عمر الدولة الأيوبية بمرحلها المختلفة. فربما يجد تفسيره في النظام الإداري الذي اعتمدته، وهو النظام الذي كان يجمع بطريقة ما بين المركزية والاتحادية. يحترم الخصوصيات، ولكن شرط أن يلتزم الأمراء والمتنفذون المحليون بواجباتهم تجاه الدولة على صعيد دفع الضرائب، وتقديم الرجال للتجنيد أيام الحرب. كما أن الحكم باسم الخلافة في عهد السلطان سليم الأول ١٤٧٠-١٥٢٠م، أول سلطان عثمان حمل لقب "أمير المؤمنين"، و"خادم الحرمين الشريفين"، والاستمرار في سياسة مواجهة القوى الأوروبية دفاعاً عن أراضي المسلمين، بل الانتقال إلى سياسة الهجوم واحتلال مناطق من أوروبا ، أعطى العثمانيين زخما من التأييد الداخلي في مختلف المناطق التي سيطروا عليها في آسيا وافريقيا، هذا إلى جانب الأصلاحات الإدارية والانجازات العمرانية في سواء في بلاد الشام أو في مصر، وبقية الدول في شمال أفريقيا. ولكن الأهم من ذلك هو تمكّن مؤسسات الدولة العثمانية من ضبط مسألة عمليات انتقال الحكم، وقطع الطريق على المغامرات الشخصية التي كانت موجودة بالتأكيد، إلا أنها لم تصل إلى حد المواجهات المفتوحة، والاستعانة بالأعداء لتصفية الحسابات الداخلية مع المنافسين من الأسرة الحاكمة.

أما بالنسبة لكردستان فقد باتت في معظمها جزءا من الامبراطورية العثمانية، وخضع قسم آخر منها للدولة الصفوية بعد معركة جالديران عام ١٩١٤م،وهي المعركة التي انتصرت فيها القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل الأول؛ ورغم ظهور االعديد من الامارات وحتى الكيانات التي عرفت باسماء الدول، إلا أن الأسباب التي أدت إلى اختفاء الدولة الأيوبية ظلت فاعلة، ونعني بها الخصومات الداخلية، والعجز عن التوافق على الأساسيات، وإدارة الخلافات حول الأمور الأخرى. وربما كان لهذا الأمر علاقة بالبنية الاجتماعية الاقتصادية، إلى جانب دور القوى المنافسة في الجوار الإقليمي التي كانت، وما زالت، تمتلك القدرة على التفاهم والتدخل لإحباط اي توجه استقلالي كردي.

الخاتمة:

ما ذ ستنتجه مما ت قدم هو أن الشخ صية الق يادة المؤه لة ت ستيطع بف ضل مهاراتها وخ صالها الحم يدة، وب عد نظر ها، و قدرتها ع لى ف هم الم عادلات والح فاظ ع لى التوزا نات لصالح م شروعها ا لجامع، وترفعها عن المناكفات والأطماع الشخصية، أن تستفيد من الظروف التاريخ ية المؤه لة، وت ستغل الخلا فات بين الـ قوى المتناف سة والمت صارعة الرام ية إلى الـ سيطرة والتوسع؛ وهذا ما حققه صلاح الدين بصبره، وتفانية واقدامه، وقدرته على التوا صل مع الأصدقاء والمنافسين والأ عداء من دون أن يتخلى عن توجهه الاستراتيجي. ولكن يبدو أن النظام الإدراي المرن الذي اعتمده في ميدان العلاقات مع مختلف مناطق دولته قد افقده قدرة التأثير المطلوب على الحكام، الذين بات كل واحد منهم يتصرف وكان سلطان أو ملك مستقل؛ وما ساهم في تأصيل هذه النزعة هو تسامح صلاح الدين مع أعضاء الأسرة الأيوبية من أبنائه وأشقائه وابنائهم. ولعل تفسير ذلك هو اعتقاده أن التزامهم بمشروعه سيكون كالتزامه، أو ربما رغبته في عدم دفع الأمور نحو التصعيد ومحاولة إدارة الخلافات بطريقة أهلية إذا صح التعبير، ليتمكن من التفرغ بصورة كاملة لمشروعه الأكبر.

ولكن الغياب السريع لصلاح الدين، حال دون ترتيب الأمور بصورة أفضل، فبرزت الخلافات التناحرية بين أعضاء الأسرة الأيوبية، وهي الخلافات التي انتهت بزوال الحكم الأيوبي.

وما يمكن أن يستخلص مما تقدّم، هو تأكيد أهمية السمات القيادية الاستثنائية التي تميّز صلاح الدين بها، وهي السمات بها التي تناولت ورقتنا قسما منها، ولكن على الجانب الآخر يمكننا أن نستفيد من أخطاء التجربة الأيوبية في واقعنا الحالي، وذلك عبر التركيز على ضرورة توزيع السلطات بين المؤسسات، وإيجاد صيغة من التكامل بينها، لتكون قادرة على معالجة الأخطاء، ومحاسبة المقصرين ضمن حدود القانون، والتفاعل المثمر مع المعادلات الإقليمية والدولية، والمحافظة على التوازن بين الإمكانيات والتطلعات.

المراجع:

١. العربية

١. الأمين، حسن. صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين. ط١. بيروت: دار الجديد، ١٩٩٥.

٢. ابن الأثير. الكامل في التاريخ. أعتنى به أبو صهيب الكرمي. الرياض:، الرياض: بيت الأفكار الدولية، لا. ت.

٣. حتّي، فيليب، وآخرون. تاريخ العرب. ط١١. بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ٢٠٢٢.

٤. رودافسكي، تمار. موسى بن ميمون. ترجمة جمال الرفاعي. ط١. القاهرة: المركز القومي للتربية. إشراف فيصل يونس. العدد ٢٠٩٥. ٢٠١٣.
٥. زكي، محمد أمين. خلاصة تاريخ الكرد وكردستان- تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي. الجزء الثاني. تعريب محمد علي عوني. مصر: مطبعة السعادة، ١٩٤٨.
٦. زكي، محمد أمين. خلاصة تاريخ الكرد وكردستان- من أقدم العصور التاريخية حتى الآن. الجزء االأول. ترجمة محمد علي عوني. ط٢. مصر: ١٩٦١.
٧. سيد، أيمن فؤاد. الدولة الفاطمية في مصر- تفسير جديد. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠٧.
٨. شداد، أبو المحاسن بهاء الدين. سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٥.
٩. شرف خان البدليسي. شرفنامة في تاريخ الدول والإمارات الكردية. الجزء الأول. ترجمة محمد علي عوني ويحيى الخشّاب. مراجعة يحيى الخشّاب. دمشق: دار الزمان، ٢٠٠٦.
١٠. عاشور، سعيد عبدالفتاح. مصر والشام **في عصر الأيوبيين والمماليك**. بيروت: دار النهضة العربية. ١٩٧٢.
١١. عزام، عبدالرحمن. **صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني**. ترجمة قاسم عبده قاسم. ط ٣، الدوحة: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر. ٢٠١٦.
١٢. قاسم، عبده قاسم. **ماهية الحروب الصليبية**- الايديولوجية، الدوافع، النتائج. مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ١٩٩٣.
١٣. المصري، ايريس حبيب. **قصة الكنيسة القبطية**. الكتاب الثالث. الاسكندرية: مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج. لا. ت.
١٤. المقريزي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**. تحقيق محمد عبدالقادر عطا. الجزء الأول. ط١. بيروت: منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية. ١٩٩٧.

٢. الأجنبية

1. Man, John. *Saladin*. The Sultan who vanquished the crusaders and built an Islamic Empire. Boston: Da Capo Press, 2016.

2. Oskar Sjöström, Oskar. ”Saladin. Jerusalems befriare”, Militär Historia, 2020-1-16. https://militarhistoria.se/medeltiden/saladin-jerusalems-befriare (2023-1-26)

الهوامش:

[1] . Oskar Sjöström, "Saladin. Jerusalems befriare", Militär Historia, 2020-1-16
تاريخ المشاهدة: ٢٦-١-٢٠٢٣

[٢] استعان الخلفاء العباسيون في بعض الأحيان بالكرد ايضا للتحرر نسبيا من هيمنة السلاجقة . للمزيد حول هذا الموضوع راجع: محمد أمين زكي، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان- من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، الجزء االأول، ترجمة محمد علي عوني، ط٢، (مصر: ١٩٦١)، ص ١٤٥.

[٣] عبدالرحمن عزام، صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط ٣، (الدوحة: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، ٢٠١٦)، ص ٢٩.
للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عصام محمد شبارو، السلاطين في المشرق العربي- معالم دورهم السياسي والحضاري- السلاجقة والأيوبيون، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٤).

[٤] عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٢٩.

[٥] للمزيد حول هذا المواضع راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٢٦- ٣٣.

[٦] شرف خان البدليسي، شرفنامة في تاريخ الدول والإمارات الكردية، الجزء الأول، ترجمة محمد علي عوني ويحيى الخشاب، مراجعة يحيى الخشاب، (دمشق: دار الزمان، ٢٠٠٦)، ص ٩٦. يعتقد شرفان خان أن اصل الأسرة الأيوبية ربما كان من رونده دوين في أذربيجان. ص ٩٦.

[٧] عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٤٢.

[٨] المرجع نفسه، ص ٤٢.

[٩] ,Oskar Sjöströmالمعطيات السابقة نفسهاتاريخ المشاهدة: ٢٦-١-٢٠٢٣.

[١٠] عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٢٦٦.

[١١] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٢٦٣-٢٧٣.
محمد أمين زكي، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان- تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي، الجزء الثاني، تعريب محمد علي عوني، (مصر: مطبعة السعادة، ١٩٤٨)، ص ٢٥٠-٢٥٥.

[١٢] مصطلح الدولة بدلالاته القانونية والسياسية هو مصطلح حديث تبلور بعد نهاية الحروب الدينية في أوروبا، وهي الحروب التي انتهت بموجب معاهدة وستفاليا ١٦٤٨.

[١٣] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، الجزء الأول، ط١، (بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ص ١٤٥.

[١٤] للمزيد حول الدولة الفاطمية راجع: فيليب حتى وآخرون، تاريخ العرب،ط ١١، (بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ٢٠٠٢)، ص ٧٠٢-٧١١.

[١٥] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالرحمن عزام، صلاح الدين، ص ٤٠-٤٣.

١٦ ,Oskar Sjöström .المعطيات السابقة نفسهاتاريخ المشاهدة: ٢٦-١-٢٠٢٣

[١٧] للمزيد حول حكمة وبعد نظر نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، السياسية، وقدراته الإقناعية واساليبه في معالجة الخلافات، واصلاح ذات البين، خاصة مع نورالدين محمود، ودوره في إقناع أهل دمشف بفتح مدينتهم أمام نورالدين، حفاظاً عليها من الخطر الصليبي راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، المعطيات ذاتها، ص ٥٣-٥٧.

[١٨] للمزيد حول هذه الحملة وأسبابها وتفصيلاتها ونتائجها راجع: المرجع السابق نفسه، ص ٧٨-٨٤.

[١٩] Oskar Sjöström, .المعطيات السابقة نفسهاتاريخ المشاهدة: ٢٦-١-٢٠٢٣

[٢٠] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٨٠-٨٧.

[٢١] المرجع نفسه، ص ٩٠.

[٢٢] المرجع نفسه، ص ٩١.

[٢٣] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: أبو المحاسن بهاء الدين شداد، سيرة صلاح الدين الأيوبي المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٥)، ص ٢٩-٣٠.
عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٩٠-٩١.

[٢٤] ومما أورده ابن شداد حول هذا الموضوع أن الآراء لم تكن متوافقة بين القادة العسكريين لاختيار صلاح الدين وزيراً، ويبدو أن المؤيدين لنورالدين كانوا يرشحون الأمير عين الدولة الياروفي. وكان هناك مرشحون آخرون منهم سيف الدين المشطوب وقطب الدين خسرو. ويُقال أن الخليفة الفاطمة عرض موضوع الوزارة على خال صلاح الدين شهاب الدين الحارمي، لكن الأخير اعتذر. وهناك من يعتقد أنه كان لكل من عيسى الهكاري وبهاء الدين قراقوش دور في ترجيح كفة صلاح الدين. للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٦.

[٢٥] Oskar Sjöström,المعطيات السابقة نفسهاتاريخ المشاهدة ٢٦-١-٢٠٢٣
يرى اوسكار شوسترُم أأن سبب اختيار صلاح الدين وزيراً خلفاً لعمه أسد الدين أن القادة المتنافسين أعتقدوا أنه شاب قليل الخبرة، الأمر الذي سيكون سببا لفشله في مسألة ضبط السياسات التوازنية مع نورالدين.
غير أن وفاة نورالدين عام ١١٧٤ فجاءة، وبعد بعدة أشهر توفي أمالريكا Amalrik I فتح المجال أمام صلاح الدين أكثر بعد أن تخلص من منافسين قويين. وتدخل الموت مرة أخرى ليساعد صلاح الدين ، وذلك بوفاة الخليفة الفاطمي بعد اسبوع من رفع اسمه من الخطبة، الأمر الذي كان إيذاناً بزوال الحكم الفاطمي في مصر، وهذا فحواه اتساع نطاق سلطة صلاح الدين لتشمل مناطق في شمال أفريقيا.

[٢٦] حول هذا الموضع يرى أبن اثير بأن صلاح الدين كان يماطل في موضوع قطع الخطبة للخليفة الفاطمي، وذلك في محاولة منه للحفاظ على التوازنات بينه وبين نورا لدين، لأنه كان يتحسب لإمكانية قيام نورا لدين بعزله. للمزيد حول هذا الموضوع راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، أعتنى به أبو صهيب الكرمي، (الرياض:، الرياض: بيت الأفكار الدولية، لا. ت)ص ١٧٤٧.

[٢٧] Oskar Sjöström, .المعطيات السابقة نفسهاتاريخ المشاهدة: ٢٦-١-٢٠٢٣

[٢٨] حول الجفاء بين نورا لدين وصلاح الدين، والشكوك المتبادلة بينهما راجع: ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٧٤٧-١٧٤٨.

[٢٩] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: المقريزي، المرجع نفسه، ص ١٥٤.

- شرف خان البدليسي، المرجع نفسه، ص ٩٨-٩٩.
- ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٧٤٨.

[٣٠] عبد الرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ١٢٢.

[٣١] المرجع نفسه، ص ١٢٧.

[٣٢] للمزيد حول انتصار صلاح الدين في حطين راجع: عبدالرحمن عزام، صلاح الدين، المعطيات نفسها، ص ١٩٥-٢١٠.

[٣٣] للمزيد حول مؤهلات وصفات صلاح القيادية راجع:

John Man," A Brief History of Leadership", pp. 237-248, in Saladin, The Sultan who vanquished the crusaders and built an Islamic Empire, (Boston: Da Capo Press, 2016).

وما يذكره جون في هذا المجال هو أن صلاح الدين كان يمتلك مهارات خاصة في ميدان حل المشكلات والقدرة على تجاوز الخلافات العائلية، وامكانية متابعة الناس، والقدرة على بناء العلاقات الشخصية، كما انه استفاد من تجربة والده، وكان ملتزما بالأسرة بصورة عامة.

إلى جانب ذلك تميزت شخصية صلاح الدين بالشجاعة والحذر والعفة والصبر والحرص على التواصل. ورغم صفاته القيادية وقدراته الفرديةالمتميّزة كان صلاح الدين يعطي أولوية خاصة للمستشارين والعلماء وللقادة وأعضاء الأسرة؛ يستمع إليهم ويستشير بهم، ويراعي الظروف والتوازنات. ويعتمد استراتيجية توحيد الطاقات في خدمة الهدف الرئيس.

[٣٤] قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية- الايديولوجية، الدوافع، النتائج، (مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٣) ص ١٤٦.

[٣٥] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: فيليب حتي،إدوارد جرجي، جبرائيل جبور، تاريخ العرب، ط١١، (بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ٢٠٠٢)، ص٥٤٦-٥٤٩.

[٣٦] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: المرجع نفسه، المعطيات نفسها، ٥٤٩-٥٥٦.

[٣٧] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: المرجع نفسه، ص ٥٦٣-٥٦٦.

[٣٨] للمزيد حول تاريخ نشوء وزوال الدولة الفاطمية وانتقالها إلى مصر راجع: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر- تفسير جديد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧).

وللمزيد حول الدولة الفاطمية في مصر خلال الفترة الأيوبية راجع: المرجع نفسه، المعطيانت نفسها، ص ٢٨٧-٣٠٩.

[٣٩] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: ايريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، الكتاب الثالث، (الاسكندرية: مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج، لا.ت.)، ص ١٥٥-١٦٢، ص ١٦٧-١٧٠.

[٤٠] للمزيد حول هذا الموضوع راجع: تمار رودافسكي، موسى بن ميمون، ترجمة جمال الرفاعي، ط١، (القاهرة: المركز القومي للتربية، إشراف فيصل يونس، العدد ٢٠٩٥، ٢٠١٣) ص ٢١-٤٣.

[٤١] للاطلاع على جانب من هذه المفاوضات والمعاهدات راجع: فيليب، إدوارد جرجي، جبرائيل جبّور، المرجع نفسه، ص ٧٤٠-٧٤١.

[٤٢] هذا رغم الفتور الذي كان يُقابل به من جانب الخليفة في بعض الأحيان، خاصة حينما أرسل وفداً بعد تحرير القدس. ويبدو أن الخليفةوالمقربين منه كانوا يشعرون بشيء من الحسد والتحسّب لتنامي قوة صلاح الدين،

وامكانية أن يقلب هذا الأخير الخلافة العباسية رأساً على عقب. للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٢٢٤.

ومايستنتج من المصادر والمراجع التي تناولت العلاقات بين الخليفة العباسي وصلاح الدين هو أنه كان للرجال المحيطين بصلاح الدين دور كبير في هذا المجال، ويُشار هنا بصورة خاصة إلى كل من عماد الدين الأصفهاني والقاضي الفاضل.

٤٣. من هؤلاء المؤرخ ابن الأثير. حول هذا الموضوع راجع: قاسم عبده قاسم، في التعقيب الذي كتبه لكتاب عبدالرحمن عزام، صلاح الدين، المعطيات السابقة نفسه، ص ٢٨١.

٤٤. للمزيد حول تفصيلات هذا الموضوع راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ١٢٥-١٣٤.

45. John Man, Saladin, p 240.

٤٦. عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٢١٧-٢١٨.

٤٧. المرجع نفسه، ص ٢٢٧-٢٣١.

٤٨. للمزيد حول هذا الموضوع راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ١٦٥-١٦٦.

٤٩. المرجع نفسه، ص ١٨٩.

٥٠. فيليب حتي، إداورد جرجي، جبرائيل جبور، المرجع نفسه، ص ٧٤١-٧٤٢.

٥١. للمزيد حول القاضي الفاضل ودوره دولة صلاح الدين راجع: عبدالرحمن عزام، المرجع نفسه، ص ٩٧-١٠١.

٥٢. حسن الأمين، صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، ط١، (بيروت: دار الجديد، ١٩٩٥)، ص ١٢٦.

٥٣. المرجع نفسه، ١٣٢.

٥٤. المرجع نفسه، ص ١٢٥-١٢٦.

٥٥. أبو المحاسن بهاء الدين بن شداد، المرجع نفسه، ص ١٨٤-١٨٥.

٥٦. للمزيد من التوسع والتفصيلات الخاصة بالخلافات ضمن الأسرة الأيوبية، وانهيار الحكم الأيوبي في كل من مصر والشام والجزيرة، ونشأة دولة المماليك، وانتصار العثمانيين عليها لاحقاً راجع: سعيد عبدالفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢).

The role of Sultan Salah al-Din's leadership in the establishment and expansion of the Ayyubid state and its cohesion

Abstract:

Writing about the Ayyubid Dynasty 1171-1250, which was established by Salah al-Din al-Ayyubi, is considered one of the difficult topics, due to the repetition of what was written by Arab, Kurdish, Western historiansand researchers in general. They provided a lot of material that dealt with the details of the historical aspects, the development of events, and the wide geographical area that the state covered. It also showed the vitality of its position in the context of the major events that took place in the region during the Crusades, and shed light on its contribution to the elimination of the Fatimid state in Egypt, as well as its administrative and urban achievements and the system of government it adopted. In order to overcome the above mentioned aspects , the proposed research paper will focus the way Salah al-Din was brought up which shaped his leadership personality. in addition to highlighting the role of his family in shaping his way of life, the social environments in which he grew up, the jobs that were assigned to him, and the opportunities that were available to him. All of these factors helped Salah ad-Din's to become a great leader with the ability to deal patiently and fruitfully with the grave challenges that were mainly represented in the Crusades, and intra-conflicts in their various forms, whether between Sunnis and Shiites, or between the princes of the Ayyubid state itself, or those were between the Ayyubid state and the rulers of its neighbouring regions Among the most important issues this paper will address the following:

1. A wise political balance and building alliances.
2. Focusing on the main goal and adopting a firm policy in dealing with obstacles.
3. Ensure that the Abbasid caliph is considered to be the source of the state's legitimacy.
4. Focusing on the Islam as dimension of the state to be able to accommodate all social aspects.
5. Adopting Shura and taking into account Olama (Muslim scholar)opinion and those with experience.
6. Paying attention to the administrative system and the urban aspect.
7. Ensure the importance of integration between the different regions of the state without direct interference in the details. the adoption of the decentralization or federal administrative system.
8. His courage and skill in leading battles.

9. The distribution of tasks within the Ayyubid family and among its commanders, in order to avoid intra-struggles over power.
10. Commitment to the values of tolerance, integrity, humility, and helping those in need.

That confirms the importance of the mentioned factors , and their role in expanding of the Ayyubid state, is that after the death of Salah al-Din, disputes arose between members of the Ayyubid family, and power struggles prompted them to enter into conflicting alliances, and to seek the help of hostile forces in order to gain strength from them in the face of competitors from among the members of the family. Add to it is the negative role played by the Mamluks.

This is what the paper will attempt to shed light on, in the context of the comparative descriptive approach that it will adopt to identify the differences between the stage of establishing the Ayyubid state during the reign of Salah al-Din, and the stage of weakness during the era of competing rulers from the Ayyubid family. I would say the struggle between the rivals led to the fall of the state in question.

In conclusion, the paper will examine the repercussions of all these on the Kurdish regions before the emergence of the Ottoman Empire.